الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

اسلمة العلوم وادلجة المعرفة

(٣-٣)

آية الله عمار ابو رغيف

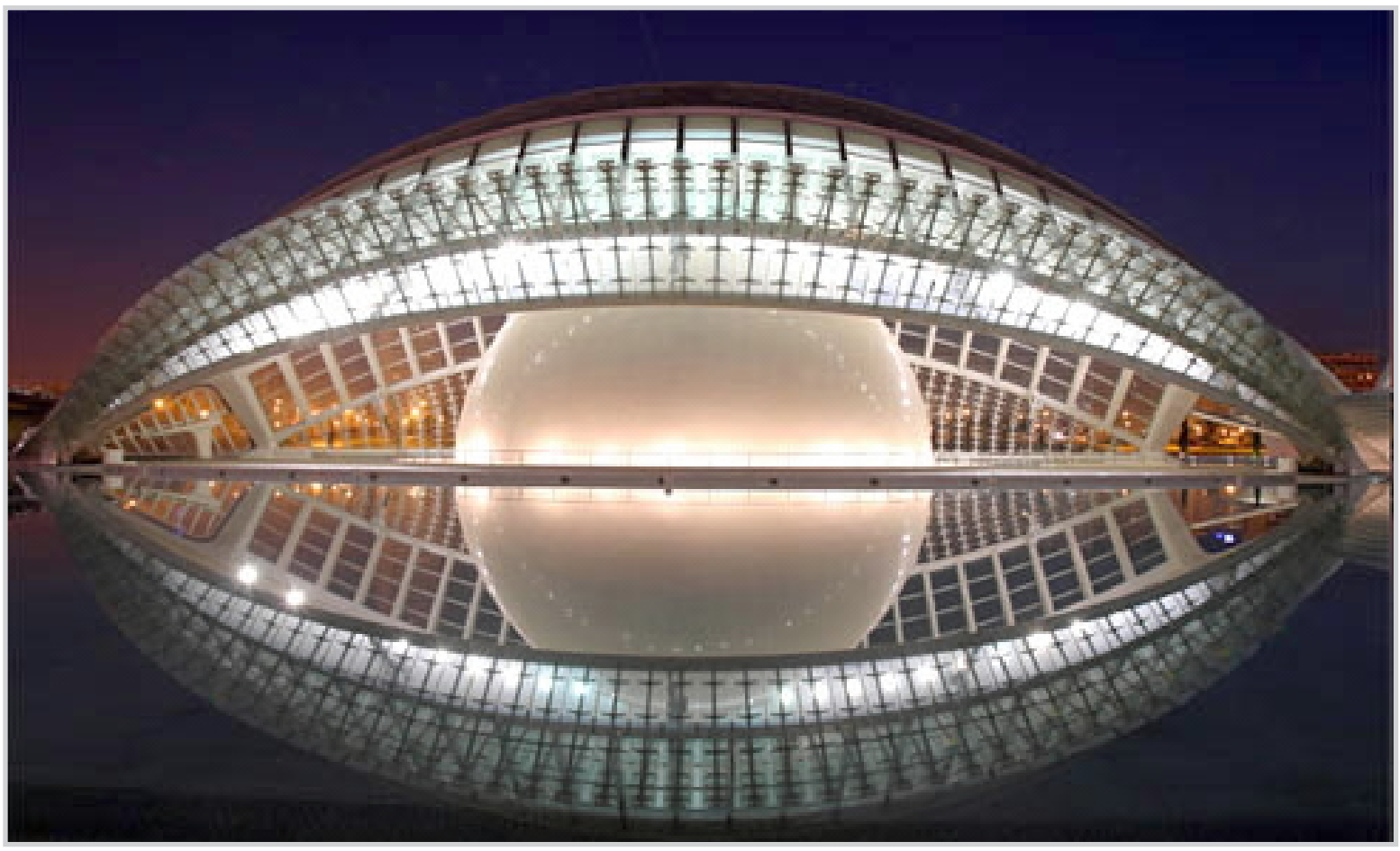

الحكمة الخالدة والعلوم المقدسة

أرادوا من الحكمة الخالدة ميتافيزيقيا العرفان، والرؤية الالهية للكون والوجود. وأرادوا من العلوم المقدسة، العلوم التي تنطلق أساساً من رؤية إلهية قائمة على أساس المعرفة العرفانية للوجود. انطلق دعاة العودة للحكمة الخالدة والعلم المقدس "أمثال رنيه كنون، تيتوس بوركهارت، حسين نصر....." من مسلمتين أساسيتين:

المسلمة الاولى: إن جوهر أزمة الانسان المعاصر، وأزمة حضارته المتمثلة اليوم بالحضارة الغربية تكمن في غياب البعد المعنوي عن حياة الانسان.

المسلمة الثانية: إن الرؤى الكونية تلون المعرفة الانسانية بلونها، فحينما اختار الغرب الحديث رؤية مادية للوجود وللانسان وللحياة أنطبعت المعرفة الحديثة بطابع مادي، وانقطع العلم الحديث عن المعاني وأضحى كائناً لاروح فيه.

يرى الدكتور حسين نصر إن الخطأ المركزي للحداثة هو: ﴿انها إتخذت من واقع العالم الخارجي أساساً لنظامها الفكري، ومن ثمَّ أضحى إنكار واقعية ماسوى المادة، وأضحى الغثيان والعبث والنسبية سمات العالم الحديث. على العكس مماهو عليه الحال في سنن الحضارات الاصيلة، حيث الله في جميع هذه السنن هو المحور الاساسي، إذ الحق هو أعلى درجات الواقع، الذي يصل عبر طي مراحل الى أدنى مراتب الواقع وهو عالم الطبيعة﴾

تدعو هذه النحلة الى إحياء علوم الأقدمين، ولايريدون من عملية إحياء هذه العلوم العودة الى المستوى الذي كانت عليه. بل العودة الى مناخ هذه العلوم ورؤيتها للكون وللوجود وللانسان. بل يطالبون أيضاً بالعودة الى الفن الكلاسيكي، بما فيه من روح، وبما يعكس من رؤية وجودية.

وبرغم بعض الغموض الذي يلف معطيات هذه النحلة الفكرية المعاصرة، الا أنها تدعو بشكل واضح الى إقامة العلوم والمعارف الانسانية على أساس رؤية الهية، وإتخاذ الرؤى الوجودية الفلسفية وحتى الدينية منطلقاً لبناء العلوم. أي إنّ هذه النحلة تتجاوز سقف مشروع أسلمة المعرفة، وتريد ربانية العلوم وقدسيتها. والسؤال الكبير الذي يطرح هنا: هل إقامة العلوم على أساس الرؤى الكونية يعني إتخاذ هذه الرؤى مقدمات منهجية في العلوم،أم يعني بناء روح العالم ورؤيته للوجود والحياة؟

لامناص من الإعتراف في ضوء قراءة تاريخ العلوم بأن واقع عمليات الاكتشاف العلمية يفضح عناصر ميتافيزيقية تتسرب كفروض ومبادئ قبلية، بل حتى رؤى بعدية تتشكل وفق نتائج ومعطيات المعرفة العلمية. تتسرب هذه العناصر وتشكل مبادئ ينطلق منها الباحثون، دون التنصيص عليها، أو الاقرار بها في أغلب الاحيان.

لكن هذا الواقع الذي سلطت عليه الدراسات الحديثة في فلسفة العلوم الضوء يطرح مجموعة أسئلة وإشكاليات، ولعل أولها: ماذا يراد بالعلم والمعرفة؟ ثم ما قيمة العناصر الميتافيزيقية التي تتسرب الى العلوم؟ وأخيراً هل يصح الاقرار بهذا الواقع وتشريعه كأساس وصيغة علمية يجدر بالبحث العلمي اتباعها؟

مفهوم العلم والمعرفة العلمية

ما المقياس الذي نعتمده لتصنيف القضايا، فنحشر بعضها في دائرة (العلم)، ونطرد بعضاً آخر من هذه الدائرة؟ من المؤكد أن مقياس تصنيف القضايا رهن تعريفنا للعلم وتحديدنا لمفهوم العلم. هذا المفهوم الذي تعرض لتغييرات تبعاً لتغيير النظريات بشأن المعرفة البشرية، بدءاً من عصر اليونان حتى يومنا الراهن.

يعادل العلم في مدرسة أرسطو المعرفة البرهانية، فما يدخل في اطار المعرفة البرهانية من قضايا يصنف على العلم ويدخل في دائرته. والمعرفة البرهانية حسب مدرسة أرسطو تمتد من الميتافيزيقيا والمنطق الى العلوم الطبيعية والنفس، ومالاينطبق عليه البرهان يدخل في دائرة الجدل. هذا في الحكمة النظرية أما الحكمة العملية من تدبير المدينة والمنزل والاخلاق الفردية فهي ليست علماً بالمفهوم الارسطي، لان قضاياها ليست ببرهانية.

وعبر تطور المعرفة في العصر الحديث تسنى لحقول من المعرفة الانسانية أن تستقل عن محضنها الاول ؟الفلسفة؟. فطُرح عنوانان معرفيان: العلم، الفلسفة. وبدأ تميّزهما على أساس نمو المعرفة المستقلة واتساع دائرة أبحاثها، فتبلورها كعلم مستقل. لكن هذا الاساس في التميز لم تدم له الحياة، بل طُرح أساسٌ آخر لتَميز الفلسفة عن العلم، وهو المنهج، فالعلم منهجه تجريبي، بينا تتخذ الفلسفة من المنهج العقلي أساساً لابحاثها. بل تطور الامر على يد الوضعية المنطقية لتحذف الفلسفة العقلية من ميدان المعرفة حذفاً تاماً، وتقتصر المعرفة على العلوم التجريبية، أما الفلسفة فتقتصر مهمتها على حد التحليل اللغوي،أي تحليل لغة العلم.

اضحى العلم في ضوء التجريبية المنطقية عبارة عن مجموعة القضايا التي يمكن التحقق منها تجريبياً، فالقضايا التي لايمكن اثباتها عبر التجربة والتدليل عليها استقرائيا خارجة عن دائرة العلم والمعرفة. ولكن العقلانية النقدية لم تر في الاستقراء وسيلة صالحة للاثبات، ومن ثم أستبدلت مقياس القابلية للاثبات تجريبياً، بمقياس القابلية للابطال، فالقضايا التي يمكن إبطالها تجريبياً تدخل في دائرة العلم.

ومن خلال مراجعة نصوص نحلة أَسلمة المعرفة يتضح ان هذه الجماعة تريد من العلم والمعرفة المفهوم الاعم من العلوم التجريبية والمعرفة القائمة على أساس التجربة. بل ذهبوا في بعض نصوصهم الى تعميم مشروع الاسلمة ليشمل المعرفة الاسلامية وعلوم الشريعة والعقيدة، وأرادوا بأسلمة هذه العلوم إعادة قراءتها التصاقاً بمنابعها الصافية ومصادرها الاصلية،كما نصوا على ذلك.

قيمة العناصر الميتافيزيقية

ماذا يراد بقيمة العناصر الميتافيزيقية، هل يراد قيمتها العلمية، ام يراد قيمتها المعرفية؟ أما قيمة العناصر الميتافيزيقية من زاوية أثرها العملي في تطوير المعرفة ونمو العلم، فأمر يمكن أكتشافه عبر مراجعة تاريخية لتطورات المعرفة البشرية. اذ ان جوهر الفروض التي يفترضها العلماء والباحثون ترتد الى مفاهيم وأفكار تفرض نفسها على الباحث، وتسوقه باتجاه البحث والتحقيق، والفروض التي تمثل قضايا لم تثبت التجربة ولا البرهان صحتها هي بداية المعرفة الانسانية.

الفروض التي تنجبها الآفاق الخصبة التي تتمثل الوجود والعالم وتدخل في جدل مع الطبيعة والانسان والوجود هي الفروض التي تغني المعرفة، وتقفز بها الى حيث إستكناه أسرار هذا الكون اللامتناهية. ولعل رمز التقدم والنمو في المعرفة عامة هو ذلك السر الذي ينطوي عليه الالهام الشعري والخيال الخلاق، الذي لايحد بحدود الحس والتجربة ومعطيات العالم المادي المحدود، فيقفز الى إكتشاف المجهول. الفروض الغنية هي التي تغني المعرفة وتطور البحث العلمي.

أما القيمة المعرفية للعناصر غير التجريبية التي تدخل في علميات الاستنباط والاستكشاف والبحث، فهناك من يرى ان مجموعة كبيرة من الاحكام الميتافيزيقية يمكن ابطالها تجريبياً، ومن ثم تدخل في دائرة العلم والعلمي وفق مقياس مدرسة القابلية للابطال لكارل بوبر.

وهناك من يصر على أن الرؤى الميتافيزيقية المتعالية تستند الى قواعد البرهان الفلسفي، ومن ثم فهي العلم الاعلى، وخلاصة حكمة البشر.

ولكننا أذا تمسكنا بالنظرية التجريبية المنطقية واتجاهات حلقة فيينا الوضعية المنطقية؟ التي تصر على تحديد العلم بما يمكن اثباته تجريبياً فسوف نخرج كل الرؤى والاحكام التي لا يمكن التحقق منها تجريبياً من دائرة العلم. لكن جملة من الاحكام التي أطلقها العقل الانساني، والتي لم يتحقق حينها من اثباتها تجريبياً سرعان ماتبين في مرحلة لاحقة امكانية اثباتها التجريبية من خلال تطور المعرفة ووسائل أثباتها، فأين نضع هذه الاحكام حينما نخرجها بالفعل من دائرة العلم هل نضعها في دائرة اللغو واللامعنى.

ان وضع الاحكام الميتافيزيقية في دائرة اللامعنى أمرٌ يكذبه واقع المعرفة، ولو حصل لكان نمو المعرفة أمراً يكاد أن يكون مستحيلاً، ذلك:

أولا : ان تاريخ العلوم حافلٌ بالاشكاليات، التي تطرح دون سند تجريبي، وتبقى هذه الاشكاليات يقظة في أذهان الباحثين على مختلف مراحل تطور المعرفة. أن الفروض مالم تكذب عبر تجربة حاسمة أو عبر إكتشاف تهافتها المنطقي لايقذف بها في دائرة اللغو، بل تبقى تتكلم وتدخل في جدل التفاهم مع أذهان الباحثين، حتى يوجد لها سبيل للاثبات أو الرفض.

ان الرؤى والاحكام القبلية مالم يثبت كذبها تجريبياً، ومالم يكتشف تناقضها الداخلي لاتخرج من دائرة البحث العلمي،وتدخل في دائرة اللامعقول. إذ مادام الفرض يحتفظ لنفسه بالتماسك والانسجام الداخلي منطقياً فهو مطروح أمام البحث العلمي، ويستدعي حسب طبيعته وأهميته المتابعة والدرس.

ثانيا : كيف تنمو المعرفة ويرشد البحث العلمي، مادام العلم عبارة عن مجموعة ملاحظات وتجارب يتعامل الباحثون عبرها مع معطيات الطبيعة الحسية؟ كيف يتسنى نمو المعرفة واكتشاف المجهول دون رؤى ومفاهيم وأحكام يراد اختبارها، ويفترض وجودها، ويندفع الباحثون لإثبات هذه الفروض وتعزيزها بالشواهد والادلة والبينات؟

على كل حال لا محيص من الاعتراف بوجود عناصر ميتافيزيقية، من رؤى كونية وجودية ونظرات للحياة والانسان تشكل خلفيات تحدو الباحثين وتؤثر واقعياً على اتجاهات البحث ومساراته، ولكن الاستفهام ينصب على إمكانية هذا الواقع من تسويغ الاقرار بمنهجية وشرعية أتخاذ هذه الرؤى مبادئ تصديقية في الكشف عن المجهول واماطة اللثام عن أسرار الكون والطبيعة؟

هل حقيقة تأثر الباحثين برؤى كونية و وجودية يعتقدون صدقها أو يؤمنون بها يسوغ اعتماد هذه الرؤى في صميم عملية البحث العلمي؟

ولكي تكون الاجابة على هذا الاستفهام سليمة علينا ان نحدد مفهوم (التسويغ) الوارد في الاستفهام فهل يراد أنه يسوّغ أعتماد هذه الرؤى تسويغاً أخلاقياً، أم يراد التسويغ العلمي المعرفي؟

من المؤكد أن التسويغ الذي نبحث عنه هنا هو التسويغ المعرفي العلمي، لاالتسويغ الاخلاقي القيمي.نحن نريد أن نعرف في ضوء مقاييس العلم والمعرفة: هل تبقى استنتاجات الباحثين علمية وسليمة في مقاييس المعرفة، وهم ينطلقون من رؤى قبلية تطبع أبحاثهم وترسم استنتاجاتهم؟

اذا كان التكوين الفعلي للكائن الانساني يسمح للرؤى والفروض غير التجريبية أن تتدخل في إستنتاجاته العلمية فهل يقرر التكوين العقلي للكائن الانساني أن تبقى هذه الاستنتاجات أسيرة لرؤى غير مدللة؟ من المؤكد أن التكوين محايد، إنما الذي يحبس الاستنتاجات أسيرة لرؤى غير مدللة علمياً هي الايدلوجيات المغلقة والرؤى المتعصبة. حيث لاتعرف هذه الايدلوجيات مفهوماً لإعادة التقويم ولفرز العلمي عما سواه من مقدمات، ولنقد المعرفة وإعادة تشكيلها، ولتخليصها مما يشوبها من أفكار لابرهان عليها.

وبُغية إثراء البحث والاقتراب به من واقع التجارب التي يمارسها البحث العلمي نأخذ علم الاجتماع نموذجاً لاختلاط الايديولوجيا (الرؤى الوجودية والمعرفية) بالعلم وبعملية إكتشاف الواقع وتفسيره.

علم الاجتماع نموذجاً

نحاول هنا الاطلال على بعض مدارس علم الاجتماع، عبر تطوراتها ومن خلال الرؤى النقدية التي استبصرت هذه المدارس، وذلك لإختبار وجهة نظرنا، التي تقرر:

أولاً. إن المعرفة العلمية لاتنفك عادة عن رؤى قبلية تكون إتجاهات الباحثين، وتؤثر عليها.

ثانيا. واقع العلوم لايسوغ الاذعان بضرورة إنحياز العلم، والدعوة لادخال مانراه رؤى أيديولوجية في عمليات الكشف العلمي. بل يتعهد البحث العلمي عبر تطور عمليات النقد والتصحيح في مساراته مسؤولية فرز المفاهيم الايديولوجية والكشف عما هو علمي خالص يعتمد البرهان والدليل، وماهو نتيجة لرؤى أيديولوجية قبلية.

لعلنا لانبالغ بالقول اذا قلنا ان علم الاجتماع على طول تاريخه يمثل مسرحاً لتداخل الايديولوجي القيمي ـ الوجودي ـ المعرفي بالعلم والكشف عن واقع الحياة الاجتماعية، ومايحكمها من سنن وقواعد. فبدءاً بإبن خلدون ومروراً باوجست كونت ووقوفاً عند هابرماس تلاحظ الاثر البيّن للمفاهيم والافكار القبلية على إستنتاجات جل علماء الاجتماع. وتلاحظ أيضاً ان عملية النقد المتواصلة إستهدفت فرز هذه المفاهيم ومحاولة إستبعادها من دائرة الاستنتاج حينما يكون إدخالها في الحساب عامل إزاحة وعزل للصورة المتكاملة أو خطأ لايصح الاخذ به.

أجل لم تنفك الدراسات الاجتماعية عن إستلهام التطورات المعرفية والرؤى الوجودية التي تضمنتها الايديولوجيات ومذاهب الفكر، فقد كانت وما تزال الدراسات الاجتماعية ميداناً للمذاهب التطورية والتأريخية ولفلسفة الظواهر الاجتماعية وإتجاهات الحداثة من التجريبية والوضعية والبنيوية ثم التفكيك المعرفي، بل لم تكن بمعزل عن جدلية الفكر واللغة التي أشغلت الدراسات اللغوية والنفسية والفلسفية منذ مطلع القرن الميلادي المنصرم.

خذ أبن خلدون الذي يصرّ أغلب الباحثين العرب على وجه التحديد على إعتباره مؤسس علم الاجتماع ولاحظ نظراته للسلطة السياسية والتغيير الاجتماعي ونظام المنزلة الاجتماعية، تجد ان الرجل إنطلق في مواقفه أزاء هذه المقولات من مرتكزات أيديولوجية ومفاهيم قبلية تعتبر السلطة السياسية غاية نهائية وتبرر الغلبة وقهر الحاكم لرعيته، وتنظر الى نظام المنزلة الاجتماعية من زاوية سلطوية فإن ؟الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي السفل الى من لايملك خيراً ولاينفع بني ابناء جنسه، وبين ذلك طبقات متعددة... فقد تبين ان الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم؟.

وقد حاول البحث الاجتماعي الحديث فرز العناصر الايديولوجية التي تختفي وراء نظرات ابن خلدون، ناقداً إياه. ؟وحصاد هذه الآراء والأقوال يوضح انه كان في بحثه ساعياً إلى تدعيم النظام القائم وتبريره، مؤيداً الفوارق بين الناس لإمور ليست بأيديهم، ومطالبا الناس بالطاعة (الناس على دين ملوكهم) ومبررا أهمية القهر والحكم الفردي والطغيان. ولولا وقوعه في هذا المأزق لكان علم الاجتماع لديه أكثر إكتمالاً علميا وإجتماعيا، لانه وإن كان قد أقر التغيير في الاجتماع الانساني فقد رفض كل تغيير مقصود تاركاً اياه فقط لتلقائية وقوعه، ولارادة الملوك والحكام.

وإذا تقدمنا خطوة للامام لنرى (الماركسية) وهي نظرية في الاجتماع، نزلت الى الميدان بوصفها نظرية علمية للمجتمع البشري، تعلل إرتباطاته وتحلل علاقاته، وتفسر تطوراته، نلاحظ أتفاق عامة الباحثين على أن الماركسية أيديولوجية بإمتياز. لكن ردود الفعل التي إنطلقت من ميدان علم الاجتماع على الماركسية بدءاً بدوركايم الى ماكس فيبر، وإنتهاء بالبنيوية الماركسية تحمل في طياتها مفاهيم وقيماً أيديولوجية في مواقفها من الماركسية.

يرى ألفن جولدنز في كتابه (الازمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي) ١٩٧٠، أن نظرية بارسونز قد تطورت في حقيقة الامر رداً على تحديات الماركسية: فأن كانت الماركسية نظرية عامة عن المجتمع تدين الرأسمالية، فقد غدت الوظيفية البنائية نظرية عامة عن المجتمع لاتبرر الرأسمالية (كما يُعتقد في العادة)، بقدر ماتقدم تفسيراً وفهماً لصعوبات الرأسمالية من دون أن تدينها. ولقد تحقق ذلك، كما سنرى، من خلال النظر الى هذه الصعوبات على إعتبار أنها جزء من عملية تطور تفضي الى مزيد من الاستقرار والتكامل.؟ على غرار عملية تطور نظام السوق الحر الذي تفضي صعوباته الى عملية توازن في النظام الاقتصادي الرأسمالي، كما ذهبت ميتافيزيقيا آدم سميث. ويلاحظ آيان كريب على بارسونز ووظيفيته البنائية: ؟ان احدى طرق النظر في الصعوبات التي تواجهها الوظيفية البنائية هي النظر في مزالق الاستعارة. فالجانب المبدع أو الخلاق من النظرية يكمن في إستخدامها للغة المجاز. فالانساق الاجتماعية تشبه الانساق العضوية. على أن بارسونز يدفع بهذا التشبيه الى أبعد مما يحتمل كما اشرت سابقا ـ فيجعل الانساق الاجتماعية نوعاً من النسق الحي. وليس هناك من داع في رأيي لدفع هذه الاستعارة الى هذا الحد، والقيام بذلك يعني وضع إفتراض ميتافيزيقي لامبرر له عن طبيعة العالم؟.

نعم فالرؤى الميتافيزيقية وفلسفات الوجود والمعرفة لم تنفك عن التأثير في مجريات المعرفة الاجتماعية، ففلسفة الظواهر لهوسرل إنعكست على علم الاجتماع بظهور مدرسة علم الاجتماع الظاهراتي، كما أنعكست الفلسفات اللغوية على البحث الاجتماعي، وتأثر البحث الاجتماعي بالبنيوية ومابعدها وبالماركسية البنيوية، وبالتفكيك وكسر الأُطر المعرفية أو اللعب بالافكار. لم يكن علم الاجتماع بمعزل عن التطورات المعرفية ونظريات الوجود والتأويل، ولم ينفصل ولن ينفصل عن تطورات الحياة العامة في الاقتصاد والسياسة والثقافة، بل لايتعدى علمٍ الاجتماع كونه منتجاً ثقافياً يحمل في سياقاته هموم الانسان وتطلعاته، ويستبطن رؤى الباحث الوجودية والمعرفية كما يحددها إبداعه وسياقه التاريخي.

هذا الالتباس الحميم، وهذا الخلط المبارك، يشكل سراً من أسرار نمو المعرفة والاقتراب من الحقيقة. وهو في نفس الوقت عبءاً امام رؤية الواقع والوقوف على حقيقة ماهو كائن. أجل فالرؤى القبلية تجر الباحث لانجاز فروضه وتدفعه للكشف عن صدقها عبر إختبارها في ضوء الواقع. الرؤى القبلية مصدر الالهام، فيها الحب والشوق والتطلع، وهي دوافع ممارسة الحياة. هكذا خلق الله الانسان. إصطناع الفروض بدافع الشوق والآمال أساس ممارسة الاكتشاف وإماطة اللثام عن الواقع المبهم.

هذا الخير الوجودي يطرح إشكالية معرفية ويشكل عبءاً أمام رؤية الحقيقة وفهم طبيعة كينونة الوجود. وأمام هذه الاشكالية لامناص للعلم من أن يواصل عمليات الفرز عبر جهده الحقيقي النقد، فرز ماهو ميتاعلمي وماهو علمي، ماهو دافع، وماهو واقع.

قد يلمح بعض ذوي البصائر النافذة في تحليلاتي المتقدمة موقفاً الصق بالايديولوجيا والرؤى الوجودية والمعرفية منه بالعلم والمعرفة العلمية المنشودة. قد يقرر بعض النقاد في ضوء ماتقدم ان الباحث إنطلق من فلسفة وجودية ورؤية معرفية، تصنفه على الاتجاهات الواقعية في المعرفة، وتضعه في صف التحيز لنظريات وجودية تنأى بنفسها عن نظرات فلاسفة الوجودية المعاصرة وإتجاهات التأويلية الوجودية كما هي عند هيدجر.

لا أبريء نفسي من ذلك ولا أبرئ الوضع الراهن للمعرفة الانسانية من أزمة الغموض والارتكاس في عالم الشك وضياع الوجود بما في ذلك التحقق العيني للذات الانسانية، الذي أصرّت عليه الوجودية المعاصرة، حيث أدارت ظهرها لكل نظرية في الوجود، وأمسكت بالوجود الانساني بمعاناته وقلقه وترقبه، هذا الوجود الذي أدخلته فلسفات مابعد الحداثة في دائرة الابهام المطلق، إنطلاقاً من إرتكانها الى النسبية المعرفية المطلقة، إنتصاراً لدافيد هيوم. ودافيد هيوم هذا من وجهة نظر الباحث يستحق أن تنتصر له في تحذيره الشهير "لايجوز الانتقال من الواقع الى الواجب، ولايجوز الانتقال من الواجب الى الواقع"، ولكن لايسعنا الا أن نتعامل مع شكه المعرفي بوصفه أزمة الحداثة، بل جوهر أزمة مابعد الحداثة.

في ظل المشهد المعرفي الراهن يطرح هذا الاستفهام:

أين يقف مشروع أسلمة المعرفة في هذا المشهد؟

لاحظنا فيما تقدم أن بعض منظري مشروع أسلمة المعرفة ينطلقون من الاقرار بالفوضى المعرفية الراهنة لتسويغ مشروعهم في أسلمة المعرفة، وإخضاعها للرؤى الكونية والمعرفية والقيمية المستنبطة من الاسلام. ولو أغمضنا النظر عن عدم منطقية هذا التسويغ، وإغمضنا النظر أيضاً عن أن الاقرار بقواعد الفوضى المعرفية إقرار بإستحالة إقامة مشروع أسلمة المعرفة، حق لنا أن نتسائل: هل يمكن بناء علم إجتماع إسلامي أوعلم نفس إسلامي... دون إجراء عملية تصفية لهذه العلوم من العناصر الايديولوجية التي تداخلت مع هذه العلوم على طول تاريخها وعلى مختلف مراحل تحولاتها المعاصرة؟ هل يمكن بناء علوم على قاعدة الرؤى الكونية والمعرفية الاسلامية قبل تنحية العناصر الايديولوجية الاخرى التي أختلطت مع هذه العلوم؟

إن العلوم المعاصرة منتج غربي دون ريب، فالعلم المعاصر مكتوب بلغات الغرب ومنتج فيها ومنها. وقد حققت هذه العلوم إنجازات متنوعة تبعاً لتنوع مناهج البحث وتعدد الاجتهادات المعرفية، والرؤى الوجودية التي ساقت هذه العلوم وأثرت عليها، فهل يبدأ مشروع أسلمة المعرفة من الصفر، أم يفيد من تلك الانجازات، عبر تصفية عناصرها، واتخاذ قاعدة سليمة للتعامل مع هذه العناصر؟

أن ازمة المعرفة في العالم الاسلامي وفي الشرق عامة تكمن أساساً في إنعدام الانتاج الداخلي، ولاينحصر تجلي أزمتنا المعرفية في كوننا نستورد مناهج ورؤى منتجة في العالم الآخر. أجل هذا الاستيراد المرضي مظهر من مظاهر أزمة المعرفة في عالمنا، لكن عمق هذه الازمة يكمن في عقم رحم الانتاج المعرفي. فنحن شعوب غير منتجة معرفياً.

الاسلام الذي نريد ان نتوج العلوم به لم يعلب لنا مناهج بحث، ولم يقدم لنا نظريات معرفية مغلقة، وفي أرجائه يمكن أن تتعدد أجتهادات المنظرين الوجوديين. فهل لدينا إنتاج لمناهج البحث، وهل سعينا لمواكبة حركة العلم المعاصر في إثارة الاسئلة الجوهرية حول المعرفة وإدامة البحث حول تفسيرها وتعليلها ونقدها؟ ثم لاأدري لِمَ يتوقف التنظير الوجودي عند أبن سينا وأبن رشد وصدر الدين الشيرازي والغزالي وأبن عربي؟ آلسنا بحاجة الى إثراء نظراتنا للوجود عبر طرح الاسئلة وأخذها في سياق هموم إنساننا المعاصر، أم ان ماطرحه الحكماء والمتكلمون والعرفاء آيات محكمات هن أم الكتاب؟!

كيف يمكننا ونحن نتعامل مع المنتج الغربي أن نتوفر على قاعدة سليمة للتعامل مع الرؤى الوجودية والمعرفية التي تختفي وراء الانشطة العلمية، ونحن لم نتوفر على رؤى وجودية ومعرفية منتجة داخلياً. ان هذه الرؤى تشكل في كثير من الاحيان نماذج إرشادية على حد تعبير توماس كون أو كوى يطل منها الباحث على موضوع بحثه، او يتخذها أداة للكشف. أن الحنين للعلوم المقدسة، لجغرافيا البيروني وفلكيات مرصد مراغة وفيزياء ابن الهيثم، أو أعتبارها النموذج الارشادي الذي ينبغي إتخاذه مثالاً للكشف الذي يحفظ لنا رؤية علمية تفيض بروح الشرق الربانية، لايعود علينا بأمر محصل. ذلك لان الرؤية الكونية الملائمة للعلوم هي تلك الرؤية المتطورة بتطور المعرفة، فالرؤية التي تختفي وراء فيزياء نيوتن لاتتطابق بالضروة مع الرؤية التي تقف خلف فيزياء أنيشتين، رغم أن الرجلين مؤمنان بعمق.

إن الرؤية الالهية للوجود تتنوع تبعاً لتنوع المعرفة الانسانية، ولايمكننا أن نستقدم رؤى القرون المنصرمة لنحملها على العلم، ليكون مقدساً! مالم نطلق العنان للاجتهاد في أطار الوجود والمعرفة، وإعادة إنتاج الرؤى الملائمة لتطورات المعرفة، لايتاح لنا أن ننتج علماً.

الوقوف ببصيرة على ماينتجه الأخرون يساهم دون ريب في إثراء المعرفة وتطويرها شرط توفرنا على إنتاج معرفي داخلي. وفي حال إنعدام مثل هذا الانتاج فسوف لايتعدى التعاطي مع الانتاج الآخر سوى ان يكون زراعة عضوية فاشلة، وهذا هو حال المشهد الثقافي في معرفة الترجمة والاستنساخ. فالترجمات الموفقة لفكر الغرب في ديارنا ـ ونحن نضرب صفحاً عن الكم الهائل للترجمات المبهمة ـ تتيح لنا الاحتكاك بهذا الفكر، لكنها لاتنتج سوى موضات لاقرار لها. فهي تظهر على المسرح، لكنها سرعان ما تختفي.

إن الفكر المترجم لم يبنِ معرفة في ديارنا، لان المعرفةَ نبتة لاتقوم على سوقها مالم يكن لها جذور ممتدة في الارض التي تشتل فيها. وقد يتحول الفكر المترجم ـ وطالما كان كذلك في ديارنا ـ الى عامل إعاقة وتشويش،بل يحول الثقافة والمعرفة الى رطانة وإبهام لأن الثقافة والمعرفة منتج في سياق، وحينما يُجتزأ من سياقه فسوف لايفهم، ولا يترك حتى إساءة القراءة، بل لاينتج سوى قراءات مسيئة للفكر وللناس.

اراء وافكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١ـ لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.
٢ـ يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.
٣ـ ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@yahoo.com